www.kotobarabia.com

العودة إلى القرآن

www.kotobarabia.com

جمال البنا

عن قواعدهم؛ حاولوا بكل الطرق تأويل ذلك بما يتفق مع قواعدهم، فلما جوبهوا بما لا يقبل التطويع، سقط قناع المفسر وظهر وجه النحوي، فقالوا "لحن القرآن!!"، وظهر بذلك أنهم أساسا لغويون لا يجدون حرجا في أن يرموا القرآن باللحن عندما يخالف قواعدهم المقدسة!.

ودخل الحلبة رجال الآثار، الذين عنوا بتفصيل ما أجمله القرآن، وتعريف ما نكره، ولم يكن لهم بد أن يلتمسوا ذلك في الكتب القديمة التي عالجت ما أشار إليه القرآن بصورة أكثر تفصيلاً، وأبرزها التوراة، وما كتبه أحبار اليهود. وسواء كانوا هم أساسا رجال آثار، ورثوا هذه الآثار من آبائهم أو بحكم نشأتهم في بيئة غير إسلامية قبل إسلامهم.. وأنهم تلمسوا الآثار عندما جوبهوا بالقضية؛ فإن النتيجة واحدة لأن النصوص كانت واحدة، حتى وإن حدث تأخير أو تقديم.. إيجاز أو أسباب. وهذه الآثار التي نقلها فريق من المفسرين، وحشوا بها كتبهم؛ هي ما أطلق عليه "الإسرائيليات"، وفات هؤلاء أن الله تعالى تعمد التنكير وعدم تحديد الأسماء والأزمان لحكمة التحريف والتزييف، وأن كثيرا منها ليس مما أنزل الله، ولكن وضعه الأحبار

والكهان.. ففسروا القرآن بأقاويل أكد القـرآن نفسـه أنهـا منحولة، ومن وضع الذين يحرفون كـلام الله بأيـديهم، ثـم يقولون هذا من عند الله، فكأنهم فسروا القرآن.. بما تبرأ منه القرآن!!

ولم يخلص رجال الحديث من المآزق التي تحكمت في المجموعتين السابقتين؛ فقد دخلوا وعمادهم ورأسمالهم الثمين هو "الإسناد"، وفي سبيل هذا الإسناد شوهوا تشـويها بالغًـا كثيرا من الآيات، خاصة عند إيراد أسـباب النـزول، وقـد كشف حقيقتهم موقفهم من قضية الغرانيـق، فعنـدما كـانوا بصدد ذكر سبب نزول الآية ٥٢ من الحج ﴿**وما أَرسلْنَا مِن قَبلِك مِن رسولٍ ولاَ نَبِي إِلاَّ إِذَا تَمنَّى أَلْقَـى الشَّـيطَان فِـي أُمنِيتِهِ فَينسخُ اللهُ ما يلْقِي الشَّيطَان ثُم يحكِم اللهُ آياتِـهِ واللهُ علِيم حكِيم**﴾؛ زعموا أن الشيطان ألقى على لسان النبـي ﷺ بعد تلاوته ﴿**أَفَرأَيتُم اللاَّتَ والْعزى. ومنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْـرى**﴾ "تلك الغرانيق العلا... وإن شفاعتهن لترتجى". ومعـالجتهم للروايات التي نقلت هذا الزعم الأثيم؛ توضح هيمنة الإسناد، وأنهم كإخوانهم اللغويين ونقلة الآثار، يفرضـون بضـاعتهم المزجاة على الذكر الحكيم، فمع أن الروايات التـي رويـت

كلها ضعيفة أو منقطعة سوى رواية لسعيد بن جبير، فقد قال الحافظ بن حجر:

"...ولكن كثرة الروايات تدل على أن للقصة أصلاً، على أن لهما طريقين صحيحيين، أخرجهما ابن جرير؛ أحدهما من طريق الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والآخر عن طريق هند عن أبي العالية، ولا عبرة بقول ابن العربي وعياض أن هذه الروايات باطلة لا أصل لها".

والغريب أن يقول الحافظ بن حجر إن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، وهو يعلم حق العلم أن رجال الحديث يتناقلون الواقعة من عشرين طريقًا، فكثرة الطرق لا تعززها، فضلاً عن أن أي إسناد مزعوم، مهما كانت صحته في المعايير التي وضعها المحدثون؛ مرفوض عندما يحمس كمال أداء النبي ﷺ لرسالته..

هذه الأمثلة كلها تظهر أن معظم المفسرين لم يدخلوا مأدبة القرآن كضيف، يعرف قداسة ما سيقدم إليه، ويعترف بالحكمة في أن يكون الساخن ساخنًا.. والبارد باردا.. وأن **يكون فيها الحلو المسكر.. والمر المتبل.. وإنما دخلوها**

"على علم"، راغبين في طعام واحد.. وفارضين هذا الطعـام على مأدبة القرآن المتنوعة المتعددة، التي أعدها الله تعالى لكل العصور وكل الشعوب؛ مما أعطى القرآن طعما غيـر طعمه ومذاقًا غير مذاقه.

وقد كشف هذه الحقيقة، وأعطاهـا مسـحة تقليديـة أن التفسير الذي وضع منذ سبعة أو ثمانية قرون؛ هـو المـنهج المقرر والمعتمد، وفرض نفسه على العصر والأجيال بحيث طبعت التفاسير القديمة مرارا وتكرارا، وأصـبح أي اتجـاه جديد في التفسير، يقاوم ويحارب وتظن به الظنون..

إيثار السنة على القرآن:

من المعروف أن القرآن يضع الأساسـيات، ويرسـي الخطوط العريضة للأحكام، وأن السـنة هـي التـي تضـع التفاصيل والجزئيات، وهي التي تشرح الغـامض، وتحـدد المجمل؛ فقد تكون الصلاة في القـرآن دعـاء، أو ركوعـا وسجودا، وقد يكون الصيام صياما عن الطعام وعن الكـلام. وقد تذكر الصلاة فلا يحدد وقتها وعددها وطريـق أدائهـا.. فتأتي السنة، وتوضح لنا المقصود بالصلاة والصيام والحج، وعدد الصلوات، ووقتها وطريقة أدائها... إلخ.

لهذا لم يكن أمام الأئمة لتتعرف على مقصود القرآن وتفاصيل ما أجمله إلا السنة؛ وهو المسلك الطبيعي والمنتظر؛ ولهذا يفضل أي مسلك آخر، كالالتجاء إلى كتب قديمة، أو استلهام شرع من قبلنا، أو غير ذلك.. ولكن ما يؤخذ على الأئمة أولاً؛ أنهم في تكييفهم لمكان السنة من القرآن، كثيرا ما أخطأهم التوفيق في وضعها موضعها الدقيق.. إذ آثروها في كثير من الحالات على القرآن.. وثانيا أن الضوابط التي وضعوها لضمان وصول السنة صحيحة وثابتة، وأفنوا فيها أعمارا بعد أعمار، وأبدعوا فنوناً من الضمانات والأساليب، لم تكن بعد هذا كله من الإحكام بحيث تسد المنافذ المتعددة التي حدثت لتأخر تدوين السنة لمدة قرن، بعد وفاة النبيﷺ؛ بحيث اتسع الخرق على الراتق.

نتيجة للقصور في هذين، ابتعد الفقه الإسلامي في كثير من المواضيع عن الخط الرئيسي للقرآن، والروح العامة التي يصدر عنها أحكامه؛ فقد اعتقد البعض أن **السنة كالقرآن سواء بسواء، على أساس أنها وحي**، ومحتجين بالآية: ﴿**وما ينطِقُ عنِ الْهوى. إِن هو إِلاَّ وحي يوحى**﴾ متجاهلين أن الآية لا تعني أن السنة وحي قدر ما تعني أن القرآن

وحي، وأن الرسول لا ينطق به عن هـ.وى، أو مـ.ن تلقـ.اء نفسه، وإنما هو وحي يوحى كما يتطلب ذلك سياق السـ.ورة. كما أن الأحاديث التي أوردوها لا تنهض دليلاً علـ.ى هـ.ذه الدعوى، فضلاً عن أن الأحاديث التي تعطي معنى مخالفًـ.ا أكثر منها..

وذهب آخرون إلى أن الكتاب أحوج إلى السـ.نة مـ.ن السنة إلى الكتاب، وأن السنة قاضية على الكتاب، تخصص عامه، وتقيد مطلقه، وتخرجه عن ظاهره، ومن قبل أبـ.احوا أن تنسخ السنة القرآن؛ **فهذه الأقوال كلها توضح أن فريقًـ.ا من الأئمة – وبوجه خاص من المحدثين – قـ.دموا السـ.نة على الكتاب.. وجعلوها حاكمة أو قاضية على الكتاب..**

ولا يقل عن ذلك أهمية الآثار التـ.ي حـ.دثت نتيجـ.ة لقصور الضوابط التي وضعها المحدثون، والتي لـ.م تـ.نجح رغم كل ما بذل فيها؛ في سد ما ظهر من ثغرات، فقد مـ.نح المحدثون الصحابة حصانة إلهية من أي نقد أو لمس، علـ.ى أساس أنهم جميعا عدول، بمقتضى نص الآية: ﴿**محمد رسولُ اللهِ والَّذين معه أَشداء علَى الْكُفَّارِ رحماء بينَهم تَراهم ركَّعا سجدا يبتَغُون فَضلاً من اللهِ ورِضوانًا سِيماهم فِي وجوهِهِم**

من أَثَرِ السجود ذَلك مثَلُهم فِي التَّوراةِ ومثَلُهم فِي الإِنْجِيلِ كَزرعٍ أَخْرج شَطْأَه فَآزره فَاستَغْلَظَ فَاستَوى علَى سوقِه يعجِب الزراع لِيغِيظَ بِهِم الْكُفَّار وعد اللهُ الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ مِنْهم مغْفِرةً وأَجرا عظِيما﴾. والصحابة لديهم هم كل من شاهدوا النبي.. وواضح بالطبع أن الآية تتكلم عن "الصحابة" في جملتهم، وليس عن كل واحد منهم، وقد ختمت الآية.. ﴿**.. وعد اللهُ الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ مِنْهم مغْفِرةً وأَجرا عظِيما...**﴾ كما أن كلمة "الصحابة" لا يمكن أن تطلق على كل من شاهد النبي.

ونتيجة لهذه الحصانة الإلهية فيما زعموا، فإنهم رفضوا بشدة كل ما وجه إلى أبي هريرة من نقد، وحاولوا تأويل توبيخ عمر له، وما قاله علي والزبير وعائشة عنه، بل الأغرب أنهم تطوعوا بالدفاع عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، وغيرهم من الذين تكتنف الشبهات إسلامهم، فضلاً عن أحاديثهم. واعتبروا المرسل من أحاديث الصحابة حجة يدخل في الصحيح، "وفي صحيحي البخاري ومسلم من هذا ما لا يحصى"، وأدخلوا في هذا أحاديث "أحداث الصحابة"؛ مثل أنس بن مالك، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري،

وعبد الله بن الزبير.. ومعظمهم كان ما بين التاسعة والعاشرة عند وفاة الرسول.. وعمر بعضهم بعده ٨٣ عاما (مثل أنس بن مالك)، واستبعدوا احتمال عدم استيعاب هذه المجموعة للأحاديث لصغر سنها، أو لتطرق النسيان إليها لبعد العهد بالرسول، وبعد انقضاء خمسين، أو ثمانين عاما على وفاته، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن "**مذهب المحدثين أن سماع ابن خمس سنين صحيح**.."؛ مما يوضح أن أحكامهم في هذا كله هي أحكام المحبين، وأن عيونهم هي عيون الرضا.. التي هي عن كل عيب كليلة..

وفي كثير من الحالات دفعهم الحرص على منزلة الرواة درجة الحيف على الحقيقة، **فحكموا بعدالة من قال جمهور المحدثين بعدالته، "وإن ظهر لمن بعدهم من أسباب الجرح ما لم يظهر لهم"؟**

فأين هذا من تحرز أبي بكر وعمر وعلي، وحرصهم على الحقيقة دون نظر إلى الراوي؛ فقد رد أبو بكر خبر المغيرة في ميراث الجد، حتى أخبره معه محمد بن مسلمة، ورد أبو بكر وعمر خبر عثمان فيما رواه من استئذانه رسول الله في رد الحكم بن أبي العاص، وطالباه بمن يشهد

معه بذلك، ورد عمر خبر أبي موسى الأشعري في الاستئذان، حتى شهد له أبو سعيد الخدري، ورد على خبر أبي سنان الأشجعي في قصة بروع بنت واشق، وقد أظهر معه أنه كان يحلف على الحديث.

وعندما كان الشيخ محمود شلتوت رحمه الله بصدد الكلام على أحاديث الآحاد؛ قال تحت عنوان "الإسراف في وصف الأحاديث بالتواتر وأسبابه":

"ويجدر بنا بعد هذا أن نعرض لظاهرة غريبة شاعت في الناس، وأن الحق ليتقاضى فيها واجبه من العلماء والمسئولين أمام الله وأمام الرسول؛ تلك الظاهرة هي أنه على الرغم من هذا التحفظ الشديد في الحكم لحديث ما دون في الكتب بالتواتر، نرى بعض المؤلفين قديما وحديثًا يسرفون في وصف الأحاديث بالتواتر، وقد يقتصدون فيخلعون عليها أوصافًا أخرى كالشهرة والاستفاضة، والذيوع على ألسنة العلماء، وتلقي الأمة إياها بالقبول والثبوت في كتب التفسير وشرح الحديث، أو في كتب التاريخ والمناقب... إلخ.. وقد يشتط أناس في سلوك هذه السبيل، فنراهم يتتبعون مع هذا أسماء الصحابة والتابعين والأئمة،

والمؤلفين الذين جرى ذكرهم على السنة النقلة في رواية حديث، وهم يعلمون أنها روايات ضعيفة لا تصبر على النقد، وأن هذه الأسماء التي يحرصون على جمعها توجد في كل حديث، حتى الأحاديث الموضوعة، ولكنهم مع ذلك يجمعونها ويجتهدون في عدها وإحصائها، وذكر الكتب التي اشتملت عليها؛ لأنهم يريدون أن يخطفوا أبصار العامة، ويستغلوا عاطفتهم الدينية... إلخ..[١٥]

وقد لمس الشيخ إحدى ظاهرتين يتسم بهما بصفة عامة المحدثون؛ وهي التهافت على التحديث، والفخر بعدد الأحاديث التي يرويها كل منهم، وإن كان الإنصاف يقتضينا أن هذه النزعة قد قوبلت بعملية تصفية وغربلة من كبار أئمة المحدثين. أما الظاهرة الثانية التي لم يشر إليها؛ فهي غلبة العقلية النقلية؛ لأن عملهم أساسا هو رواية ونقل، وليس (أو أكثر مما هو) النقد أو التمحيص، وإدراك كثير من الكتاب السابقين، ومن المحدثين أنفسهم كذلك، فرموا الرواة بأنهم من حملة المحابر أو أرباب المحابر، وقال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه:

---

[١٥] الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت، ص ٦٠.

"وأكثر كتبة الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظ ـه، خالٍ من معرفة فقهه، لا يفرق ـون بـ ـين معل ـلٍ وصـ ـحيح، ولا يميزون بين معدل من الرواة ومجروح، لا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه، ولا يبحثون عن معنى خفي عـ ـنهم علمه، مع أنهم قد أذهبوا في كتبه أعمارهم، وبعـ ـدت فـ ـي الرحلة لسماعه أسفارهم... إلخ." وفي "زغل العلم" للذهبي: "وأما المحدثون فغالبهم لا يفهمون، ولا همة لهم في معرفـ ـة الحديث، ولا في التدين به؛ بل الصحيح والموضوع عنـ ـدهم بنسبة، وإنما همهم في السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواية؛ فأي شيء ينفع السماع علـ ـى جهلة المشيخة، الذين ينامون والصبيان يلعبون، والشـ ـبيبة يتحدثون ويمزحون، وكثيـ ـر مـ ـنهم ينعسـ ـون ويكـ ـابرون، والقارئ يصحف... إلخ..

ونحن لم نستشهد إلا بقليل مما جاء في هذا الموضوع؛ لأننا أنفسنا من الذين يعتزون بأن لهم بالحديث نسبا، ولكـ ـن الحقيقة أولى من أي نسب.. ومع أن هـ ـذه الصـ ـورة التـ ـي تصور حالة بعض المحدثين في إحـ ـدى فتـ ـرات الضـ ـعف والتحلل التي انتابت المجتمع الإسلامي قد انتفت الآن بفضل

طبع الصحاح والموسوعات، وإمكان المقارنة والنقد، وغير ذلك من الأساليب؛ فإن هذه النزعة النقلية قد خلقـت أثـرا عميقًا في الفكر الإسلامي، وربما طبعتـه بطابعهـا لـدى الكثيرين.